

الخزانة الزبانية القندوسية نموذج محلي للحفاظ على التراث الوطني

د. عبد القادر بوباية*

مقدمة:

مما لا شك فيه أن الطرق الصوفية قد لعبت دورا كبيرا في حياة المسلمين سواء من خلال التعليم أو من خلال النشاطات الأخرى التي كانت تقوم بها.

وينطبق ذلك تمام الانطباق على الطرق التي كانت منتشرة في الجزائر عامة، وفي المناطق الصحراوية منها على وجه الخصوص، ذلك أن العزلة والابتعاد عن المراكز العلمية التي كانت تعيشها هذه الأخيرة قد ساهم بشكل كبير في ظهور الطرق الصوفية التي لعبت دورا كبيرا في نشر التعليم بين صفوف أهل هذه المناطق، كما لعبت دورا أهم في تنظيم الحياة داخلها، إضافة إلى تولى مسؤوليات أخرى مرتبطة بالظروف التي كانت تمر بها هذه المناطق.

لقد تحولت الزوايا إلى منابر للتعليم، وتخرج على أيدي شيوخها الآلاف من الطلبة المجهزين بالعلوم التي يحتاجون إليها في توجيه عامة

* - أستاذ محاضر، قسم التاريخ، جامعة وهران.

المسلمين، إضافة إلى نشاطات سياسية واجتماعية أخرى، ومن بين أبرز هذه الزاويا الزاوية الزيانية.

تأسست الطريقة الزيانية على يد الحاج محمد بن عبد الرحمن بن أبي زيان المعروف بمولاي بوزيان الذي ولد في منتصف القرن السابع عشر في عائلة شريفة كانت مقيمة عند مصب وادي درعة¹، وقد تناولت بعض المصادر حياته بالتفصيل، ومنها على وجه الخصوص كتاب "طهارة الأنفاس والأرواح الجسمانية في الطريقة الشاذلية الزيانية" الذي ألفه مصطفى بن الحاج البشير، وكتاب "فتح المنان في سيرة الشيخ الحاج محمد بن أبي زيان" لمؤلفه عبد الرحمن بن يعقوب مزيان اليعقوبي، وكتاب "منهل الضمان ومزيل الهموم والكروب والأحزان في كرامات شيخنا العارف بالله سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمن بن أبي زيان" لمؤلفه الحاج علي الشامي.

بعد وفاة والده خرج الشيخ محمد بن أبي زيان من قرية التحانة القريبة من القنادسة متوجها إلى زاوية تافالالت التي كانت مقر الشيخ أبي بكر بن عزة شيخ الطريقة الشاذلية²؛ فدرس عليه القرآن، وأخذ عنه سرّ الطريقة أيضا، كما تتلمذ على الشيخ امبارك بن عبد العزيز حسب ما أورده مؤلفا كتاب "المرابطين والإخوان"³.

ثم توجه إلى جوهرة المغرب مدينة فاس طلبا للعلم بناء على نصيحة شيخه، وبقي فيها لمدة ثماني سنوات أخذ خلالها عن علماء بارزين في وقتهم من أمثال محمد بن عبد القادر الفاسي الفقيه العالم، الإمام المتفنن، المحقق القدوة الذي أخذ عن والده وأجازته، كما أخذ عن

الشيخ السوسي وابن عم أبيه محمد بن أحمد الفاسي وغيرهم، وله تأليف في المنقول والمعقول⁴، وأبو محمد عبد السلام بن أحمد جسوس الفاسي، الإمام شيخ المعارف والفضائل، وأستاذ الأكابر والأفاضل، وصدر المجالس والمحافل، الصوفي المتفنن في العلوم، العالم العامل، صاحب التأليف في الأدعية النبوية⁵، وأبو العباس أحمد بن العربي المعروف بابن الحاج الفاسي، الشيخ الإمام، نخبة الأكابر وبغية الأعلام، الفقيه العلامة.⁶

بعد انتهاء تعليمه في مدينتي فاس وتافاللت، توجه الشيخ محمد بن أبي زيان إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، وفي طريق عودته زار القاهرة وطرابلس، وتونس أين التفّ حوله الكثير من طلبة العلم.⁷

عاد الشيخ محمد بن أبي زيان بعد هذه الرحلة إلى بلاده، واستقرّ بالقنادسة التي بناها زاوية⁸ صارت مركز قصر ذا أهمية كبيرة في المنطقة⁹، وبعد زمن قصير أصبحت مقصدا للزوار الذين بلغ عددهم في بعض الأحيان أربعمئة زائر، وكان لبناء الزاوية أثره البالغ على مدينة القنادسة التي أصبحت غنية بعد فقر، وعرفت بعدما كانت مجهولة، وارتوت بعدما كانت تعاني من العطش.

تذهب مصادر الطريقة الزيانية إلى أن الشيخ محمد بن أبي زيان هو السابع والثلاثين في سلسلة شيوخ الطريقة الشاذلية التي أسسها أبو الحسن الشاذلي في قرية شاذلة الواقعة خارج مدينة تونس، والذي استقرّ في القاهرة أين أظهر كراماته وعلمه للخاصة، وكانت وفاته سنة 656هـ.¹⁰

ومن ضمن المذكورين في هذه السلسلة شيخه أبو بكر بن عزة
ومحمد بن ناصر الدرعي وأبي الحسن الشاذلي وأبي مدين الغوث¹¹، الذي
مدحه شرف الدين البوصيري بقصيدة أوردتها صالح بن عبد الحلیم
الإيلاني في كتاب مفاخر البربر، ومما جاء فيها قوله:

يخيل لي في كل شعب سلكته بأن شعيبا في ذلك الشعب
أبا مدين أوردني ماء مزينا من الحب حتى فزت بالمنهل العذب
وآنست نارا من جنابك للهدى بدت فانجلت عنا بما ظلم الكرب
فمثلك من يدعوه مثلي لكربه فينجو لحسن الظن فيه من الكرب¹²

بعد حياة حافلة بالنشاط العلمي والعطاء الصوفي، انتقل الشيخ
محمد بن أبي زيان إلى جوار ربه يوم 10 رمضان سنة 1145هـ الموافق
لـ 24 فبراير 1733م، وقيل سنة 1151هـ حسب رواية أخرى.¹³

سار خلفاء الشيخ محمد بن بوزيان على طريقة سلفهم في
تشجيع العلم والعلماء، فضلا عن الأعمال الخيرية الأخرى، ومنها إكرام
عابري السبيل، وتعليم الطلاب الوافدين إلى الزاوية وفروعها المختلفة،
واستقبال الفارين من الاضطهاد والظلم.

من خلال نشاطها العلمي أمكن للزاوية جمع عدد كبير من
المؤلفات العلمية وفي شتى الفنون، ويؤكد ذلك وجود 3000 مخطوطة في
سنة 1950م حسب رواية شيخ الزاوية القندوسية آنذاك، وهو سيدي
عبد الرحمن لعرج، كما يذكر ذلك الأستاذ أبو القاسم سعد الله.¹⁴

إن ذلك الكم الكبير من المخطوطات يؤكد اهتمام الزاوية الزيانية بالعلم وجمع مؤلفاته بهدف توفيرها للطلبة، وما يؤسف له هو تعرض هذه المؤلفات إلى السرقة والنهب والتلف عبر مرور السنون والأيام، وهو الأمر الذي دفع أحد أحفاد الشيخ محمد بن أبي زيان إلى التفكير الجاد في إنشاء خزانة تحوي ما سلم من المخطوطات التي كانت تزخر بها خزانة الأجداد، وقرّر وضع أسس الخزانة الزيانية القندوسية التي يهدف من خلالها إلى الجمع بين الأصل، وهو الزاوية الزيانية التي أسسها جدّه، والقنادسة التي تحولت بفضل استقرار هذا الجدّ بها إلى مركز علمي واقتصادي هام كان له دوره الكبير في إنعاش المنطقة، وجلب السكان إليها من كل حذب وصوب.

قليل هم أولئك الرجال الذين يسعون إلى تسخير وقتهم وممتلكاتهم لخدمة البحث العلمي، ومن أولئك الرجال النادرين صاحب مشروع "الخزانة الزيانية القندوسية" الذي اكتشف في بيوت أسرته العريقة عددا هاما من المخطوطات، ويسعى بمجهوداته الخاصة إلى إنشاء خزانة يساهم بها في إثراء الحركة العلمية والثقافية بمدينة القنادسة خاصة، وبشار عامة.

صاحب هذا المشروع الهام هو أحد أحفاد الشيخ محمد بن أبي زيان مؤسس الزاوية الزيانية، ويدعى مبارك الطاهري الذي آل على نفسه أن يجمع شتات ما بقي من مخطوطات أسلافه ويشكل منها نواة خزانة علم ينتفع بها أبناء منطقتهم وكذا الباحثين المهتمين بتحقيق التراث المخطوط المتناثر هنا وهناك من تراب الجزائر.

ولد صاحب هذا المشروع العلمي الهام في القصر القديم بالقنادسة سنة 1963م، والتحق بمدرسة خربوشي التي زاول فيها دراسته الابتدائية، ثم انتقل إلى متوسطة القنادسة، ومنها إلى ثانوية العقيد عثمان (الثانوية المتشعبة سابقا) التي توج دراسته فيها بالحصول على شهادة البكالوريا سنة 1983م (شعبة رياضيات عادية).

التحق الطاهري مبارك بجامعة وهران في نفس السنة، وحصل على شهادة ليسانس التعليم - تخصص هندسة مدنية - سنة 1987م، وعلى إثرها التحق بالتعليم الثانوي، وذلك منذ عام 1988م حيث درّس مادة الرياضيات في كل من ثانوية بني عباس وثانوية القنادسة منذ سنة 1990م، وثانوية العقيد عثمان منذ سنة 1996م، والتي مازال يعمل بها إلى يومنا هذا.

بدأ تفكير السيد الطاهري مبارك في إنشاء هذه الخزانة منذ تاريخ التحاقه بجامعة وهران سنة 1983م، ولعلّ أبرز دافع جعله يقدم على ذلك هو تعرض الخزانة للسرقة والنهب حيث لم يبق من مخطوطاتها 3000 في سنة 1950م حسب رواية شيخ الزاوية القندوسية آنذاك، وهو سيدي عبد الرحمن لعرج، كما يذكر ذلك الأستاذ أبو القاسم سعد الله إلا 84 مخطوط تمكن الطاهري من جمعها لحدّ الساعة.

بعد تخرجه من جامعة وهران، قام بجمع ما بقي من المخطوطات، ومن أجل إبعادها عن الأيدي وضعها في غرفة نومه، وشرع في صيانتها، وقد تجسدت فكرة إنشاء خزانة الزاوية الزيانية بمساعدة عبد الله حمادي الذي اشترك مع الطاهري في جمع المخطوطات وتنظيفها.

أول عملية قام بها صاحب الخزانة هي ترميم البناية التي ستخصص للخزانة، وتمثل في جزء من بيت صاحبها، الذي ينوي إنشاء خزانة مخطوطات وروضة أطفال وقاعة مطالعة، ومتحف لحفظ ذاكرة المنطقة، وقد استغرق ترميم البيت أربع سنوات، وأدرج هذا العمل ضمن عملية الترميم التي قامت بها الدولة لقصر القنادسة.

أصبحت الخزانة جاهزة لاستقبال المشروع العلمي والثقافي الذي يسعى الطاهري مبارك لإنجازه، وقد تمكن صاحب الخزانة من جمع 84 مخطوطة في شتى حقول المعرفة، وبالمناسبة يوجه نداء إلى كل المهتمين بهذا العمل الكبير لمساعدته من أجل تجسيد هذا المشروع، وهو في حاجة ماسة إلى أجهزة إعلام آلي وأجهزة سكانير من أجل تصوير المخطوطات ليسهل على القراء قراءتها، والاستفادة منها دون إتلاف المخطوطات الأصلية، كما يحتاج إلى رفوف لوضع الكتب عليها، وإنشاء قاعة للمطالعة.

وبالمناسبة أيضا يوجه السيد مبارك الطاهري نداء إلى كل من الشيخ لعرج محمد الاعرج شيخ الزاوية الزيانية الحالي، ورئيس المجلس الشعبي الولائي الذي سبق أن وعد بدعم إنشاء الخزانة، كما يتوجه بذات النداء إلى كل الغيورين على التراث المخطوط، وذلك من خلال الإقدام على التبرع بالمخطوطات المتواجدة بحوزتهم أو بتقديم نسخ مصورة عنها يمكن للباحثين الاستفادة منها.

قبل إيراد قائمة بالمخطوطات المتواجدة بالخزانة الزيانية القندوسية أود التنويه بهذا العمل الذي قام به السيد مبارك الطاهري، والذي أتمنى أن

يكون قدوة لغيره من مالكي المخطوطات في كامل أنحاء الجزائر، كما أتمنى أن يقتدي هؤلاء بهذا العمل، ويخرجوا ما بجزائهم من تراث مخطوط حتى يتسنى للباحثين الاستفادة منها في أبحاثهم فضلا على القيام بتحقيقها، وإخراجها إلى النور، وحفظها نهائيا من التلف الذي تتعرض له وهي حبيسة الخزائن.

محتويات الخزانة الزبانية القندوسية:

رقم	المخطوط	المؤلف	الموضوع	ملاحظات
1	تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام أو شفاء الأسقام ومحو الآثام.	عبد الجليل بن محمد بن أحمد بن عظام المرادي	المديح النبوي	
2	منهل الظمان	الشيخ الحاج علي بن عبد القادر التازي	التصوف	ناقص
3	منهل الظمان	الشيخ الحاج علي بن عبد القادر التازي	التصوف	نسختان
4	طهارة الأنفاس	محمد مصطفى بن الحاج البشير	التصوف	نسختان
5	كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء	ابن الكردبوس	التاريخ	ناقص
6	رحلة الوزير في افتكاك الأسير	محمد الغساني الأندلسي	التاريخ	
7	نظم الدر المكنون في ترتيب تبصرة ابن فرحون	عبد الرحمان بن أحمد بن حبيب اللمطي	الفقه المالكي	
8	البحر المورود في المواثيق والعهود	عبد الوهاب الشعراني	التصوف والأخلاق	

المجلة الجزائرية للمخطوطات

9	- قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم - قصيدة الأنوار في التوسل بالمشائخ الأبرار	- مجموعة من الشيوخ -المكي بن المبارك	المديح النبوي
10	جامع المتون	مجموعة من المشايخ	فنون شتى
11	تفسير القرآن الكريم	جلال الدين السيوطي	التفسير
12	الهزمية	شرف الدين البوصيري	المديح النبوي
13	التصريح بمضمون التوضيح	خالد بن عبد الله بن أبي بكر الأزهري	النحو والصرف ألفية ابن مالك
14	جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد	أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري	الحديث النبوي والمصطلح
15	الشفاء	القاضي عياض	السيرة
16	مواهب الجليل شرح خليل	الخطاب	الفقه المالكي ج1
17	مواهب الجليل شرح خليل	الخطاب	الفقه المالكي ج2
18	مواهب الجليل شرح خليل	الخطاب	الفقه المالكي ج3
19	مواهب الجليل شرح خليل	الخطاب	الفقه المالكي ج4
20	صحيح البخاري	البخاري	الحديث ج5
21	كتاب الأغاني	الأصفهاني	الأدب
22	- أقسام الحديث - كتاب الألفية على الحديث المسماة التبصرة والتذكرة	عبد الرحيم بن الحسين الأنصاري	منظومة في الحديث تلخيص كتاب ابن الصلاح
23	مجموعة قصائد الخلفاء الراشدين وبعض أهل	مجهول المؤلف	ناقص

المجلة الجزائرية للمخطوطات

			الصلاح	
	تفسير الأحلام	مجهول المؤلف	تفسير الأحلام	24
	الفقه المالكي	الشيخ خليل	مختصر خليل	25
	الحديث	أبو العباس الهاشمي	أربعون حديثا	26
	التصوف	عز الدين بن عبد السلام بن غانم المقدسي	حل الرموز ومفاتيح الكنوز	27
	الأدب	مجهول المؤلف	قصص وحكم الآيات	28
	الفقه المالكي	الشيخ خليل	مختصر خليل	29
	السيرة النبوية	القاضي عياض	الشفاء بتعريف حقوق المصطفى	30
	الفقه المالكي	مجهول المؤلف	كتاب في الفقه المالكي	31
	التاريخ	أبو العباس أحمد بن خالد الناصري	الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى	32
	الفقه المالكي	أحمد بن محمد القلشاني	كتاب في الفقه المالكي	33
به نقص			كتاب في الفقه المالكي	34
به نقص			كتاب في التاريخ	35
	التصوف	أحمد زروق البرنسي	شرح حزب الفلاح للشاذلي	36
	الفقه المالكي	أبو العباس أحمد بن محمد الحساني؟	كتاب حوض المورود في شرح أرجوزة ابن رشد	37
ناقص	التصوف	مجهول العنوان والمؤلف	أخلاق وتصوف	38
	الحديث	مجهول المؤلف	شرح كتاب من كتب الحديث	39
ناقص	الفقه المالكي	مجهول المؤلف	شرح متن ابن عاشر	40
	الفقه المالكي القضاء	أبو القاسم سلمون بن علي بن سلمون الكتاني	كتاب في الفقه المالكي	41
	اللغة		صفحات من معجم لغوي عربي	42

43	-الأربعين حديثا -المباحث الأصلية في البحث عن طريقة الصوفية -نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير	- أبو عبد الله محمد بن أبي بكر -الشيخ ابن البنا السرقسطي - محمد بن يوسف السنوسي	-الحديث -التصوف -التصوف
44	القرآن الكريم بالخط العثماني		القرآن الكريم
45	كتاب في الفقه المالكي	مجهول المؤلف	الفقه بلا عنوان
46	متن الألفية	نسخ حسين حسين	النحو و الصرف
47	شرح الرسالة		الفقه المالكي
48	حلية العشبة المسماة تبغ: منافعها وآثارها	سيدي أحمد بن عبد الله السنوسي	أعشاب
49	صحيح البخاري	البخاري	الحديث ج 1
50	المعيار المعرب عن فتاوى أهل المغرب	الونشريسي	الفقه المالكي ج 1
51	المعيار المعرب لفتاوى أهل المغرب	الونشريسي	الفقه المالكي ج 2 نسختان
52	كتاب في الحديث	البخاري	الحديث
53	كتاب في الفلك		الفلك
54	كتاب في الطب		الطب
55	الحطاب على خليل (مواهب الجليل)	الحطاب	الفقه المالكي
56	الحطاب على خليل (مواهب الجليل)	الحطاب	الفقه المالكي
57	مقامات الحريري	الحريري	الأدب

المجلة الجزائرية للمخطوطات

58	مصحف	قرآن	
59	ألفية ابن مالك	النحو والصرف	
60	كتاب في الفقه المالكي	الفقه المالكي	
61	صحيح البخاري	الحدث	البخاري
62	منظومة ابن بري	التجويد	ابن بري
63	كتاب في المعادن	الثقافة	
64	كتابين في التصوف	التصوف	
65	شرح ابن عاشر	الفقه المالكي	
66	كتابان في الفقه المالكي	الفقه المالكي	
67	كتاب في التاريخ الإسلامي	التاريخ	
68	كتاب في فضائل السور القرآنية	علوم القرآن	
69	تحفة الأريب ونزهة اللبيب	الأدب	عبد القادر الفاسي
70	كتاب في الفقه المالكي	الفقه المالكي	ناقص
71	- كتاب في التصوف - كتاب منامات الصالحين	التزكية	نسختان
72	كتاب في الفقه المالكي	الفقه المالكي	
73	- جامع المتون - شرح ابن عاشر - كتاب في الفقه المالكي	- مجموعة من المؤلفين - فنون شتى/3 نسخ - الفقه المالكي - الفقه المالكي	
74	الراغب في الأدب	الأدب	الأصفهاني
75	كتابان في الحديث	الحدث	ناقص
77	كتاب في التصوف	التصوف	
78	القصيدة السننية المسماة: النفحات القدسية	التصوف	ابن باديس

79	كتاب في الأدب		الأدب	ناقص
80	السيرة النبوية		السيرة	
81	صحيح البخاري	البخاري	الحديث ج4	
82	أمثال وحكم		الأدب	ناقص
83	- كتاب البركة - كتاب في السياسة الشرعية	- محمد بن القاضي الأجل أبو زيد عبد الرحمان	- ثقافة - السياسة الشرعية	- ناقص - ناقص
84	- تحفة الأخيار في الصلاة على المختار		- التصوف	
85	كتاب في فضائل السور القرآنية		علوم القرآن	

الهوامش:

1. Luis Rinn- Marabouts et Khouan-lib.Adolphe Jourdan- Alger-1884-p.408/
O.Depont/Xavier Coppolani- les confréries religieuses musulmanes - lib.Adolphe Jourdan- Alger-1897-p.497.
2. أبو القاسم سعد الله-تاريخ الجزائر الثقافي- دار الغرب الإسلامي-بيروت- الطبعة الأولى-1998م-ج1 ص 504.
3. Louis Rinn-Op.cit-p.408.
4. الشيخ محمد بن محمد مخلوف- شجرة النور الزكية في طبقات علماء المالكية- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الأولى-1424هـ-2002م-ص 329.
5. نفسه- ص 331.
6. نفسه- ص 328.

7. Louis Rinn-Op.cit-p.409
8. أبو القاسم سعد الله-المرجع السابق- ج 1 ص 505.
9. Louis Rinn-Op.cit-p.409
10. أبو القاسم سعد الله- المرجع السابق- ج 4 صص 64-68.
11. نفسه- ج 1 ص 505.
12. مجهول- مفاخر البربر- تحقيق عبد القادر بوباوية- دار أبي رراق للنشر والتوزيع- الرباط- 2005م- ص
13. Louis Rinn-opcit-p.411.
14. أبو القاسم سعد الله- المرجع السابق- ج 5 ص 370-371.